الحديث الثالث

أخلاق إجتماعية كريمة

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ استعاذ بالله؛ فأعيذوه، وَمَنْ سألكم بالله؛ فأعطوه، وَمَنِ استجار بالله؛ فأجيروه، وَمَنْ آتى إليكم معروفاً؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا؛ فادعوا له؛ حتَّى تعلموا أنْ قد كافأتموه» رواه النَّسائيُّ[1].

ورواه أبو داود[2] بلفظ: «مَنِ استعاذكم بالله؛ فأعيذوه، وَمَنْ سألكم بالله؛ فأعطوه، وَمَنْ دعاكم؛ فأجيبوه، ومَنْ آتى إليكم معروفاً؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له؛ حتَّى تعلموا أنْ قد كافأتموه» ورواه أبو داود[3] أيضاً بلفظ: «من استعاذ... ومن سأل... ومن صنع لكم معروفاً...» ورواه ابن حبَّان[4] بلفظٍ مقاربٍ لهذه الرِّواية، ورواه الحاكم[5]، ورواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» مختصراً بلفظ: «مَنِ اصطنع إليكم معروفاً؛ فجازوه، فإن عجزتم عن مجازاته؛ فادعوا له؛ حتَّى تعلموا أنْ قد شكرتم، فإنَّ الله شاكرٌ يحبُّ

---

(١) النسائي ٥/ ٨٢.
(٢) أبو داود برقم ٥١٠٩.
(٣) أبو داود برقم ١٦٧٢.
(٤) ابن حبَّان: موارد الظمآن برقم ٢٠٧١.
(٥) وقد أورده الألبانيُّ في صحيح الجامع ٦٠٢١ وفي صحيح التَّرغيب ٨٤٤.

الشَّاكرين»[1] وقد رُوي أيضاً عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً. والحديث صحيحٌ[2].

هذا الحديث برواياته نموذجٌ من نماذجَ كثيرةٍ تدلُّ على رعاية الإسلام للأخلاق الاجتماعيَّة الَّتي تؤكِّد المودَّة بين النَّاس، وتحقِّق التَّرابط في مجتمعاتهم، وتملأ صدور البريَّة بالرِّضا، وتغمرهم بالسَّعادة السَّعيدة.

وكلُّ فقرةٍ من فقراته درسٌ عظيمٌ تستحقُّ أن نقف عندها طويلاً متأمِّلين، مستنبطين منها الحِكَم، والعبر.

فإعاذة من استعاذ بالله مكرمةٌ، وإجارة من استجار بالله مكرمةٌ، وإعطاء من سأل بالله مكرمةٌ، وإجابة الدَّاعي مكرمةٌ، وشكر المحسن مكرمةٌ.

إنَّ إجارة المستجير، وإعاذته تُحقِّق له الأمان، وتخلِّصه من الذُّعر، وتبعد عنه الضِّيق.

وما أكثر ما تلاحق المرء في هذه الحياة نكباتٌ، وأزماتٌ، ومشكلاتٌ في صحَّته، وأهله، وماله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] وهو في أكثر الحالات عاجزٌ عن مواجهتها وحده بمفرده.. ومن هنا ندب الإسلام أتباعه إلى أن يعودوا المريض، ويواسوا المنكوب، ويُغيثوا الملهوف، ويعزُّوا الثَّكلى، ويُغيثوا المستغيث، فإذا التجأ المنكوب، أو المكروب إلى أخيه يستثير مروءته، ويطلب نُصرته؛ كان على القادر أن يكون في حاجته، وأن يُغيثه، وينصره.

وممَّا يلفت الأنظار صياغةُ هذا الحديث المحكمة المحبوكة، وجرسُه المتوازن الرَّائع:

---

(١) التَّرغيب والترهيب ٢/ ١٠.

(٢) وانظر رياض الصَّالحين: باب كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله غير الجنَّة، وكراهة مَنْ منع من سأل بالله، وتشفَّع به.

مَنِ استعاذ بالله ؛ فأعيذوه ، وَمَنْ سألكم بالله ؛ فأعطوه ، وَمَنِ استجار بالله ؛ فأجيروه ، ومن دعاكم ؛ فأجيبوه.

واستعاذه وعاذ به يعوذ عوذاً وعياذاً ومعاذاً: لاذ به ، ولجأ إليه ، واعتصم.

وفي الحديث جملتان متقاربتان في المعنى وهما «مَنِ استعاذ بالله ؛ فأعيذوه ، وَمَنِ استجار بالله ؛ فأجيروه».

وإجارة المستجير من مكارم الأخلاق ؛ الَّتي كانت في العرب قبل الإسلام ، وإنَّما بُعث رسول الله ﷺ ليتمِّم هاتيك المكارم.

فقد كانوا يفتخرون بإجارة المُستجير ، كما قال الشاعر:

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيْلٌ عَدِيْدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا: إنَّ الكِرَامَ قَلِيْلُ
وَمَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا ... شَبَابٌ تَسَامَىٰ لِلْعُلاَ وكُهُولُ
وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيْلٌ وَجَارُنَا ... عَزِيْزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِيْنَ ذَلِيْلُ[1]

وكما قال ودَّاك بن نُمَيْل المازنيُّ:

مَقَادِيْمُ وَصَّالُونَ فِي الرَّوْعِ خَطْوُهُمْ ... بِكُلِّ رَقِيْقِ الشَّفْرَتَيْنِ يَمَانِ
إذا استُنْجِدوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمُ ... لأيَّةِ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانِ[2]

وقال يزيد بن حِمَّانَ السَّكونيُّ:

إنِّي حَمِدتُ بَنِي شَيْبَانَ إذْ خَمَدَتْ ... نِيْرَانُ قَوْمِي وَفِيْهِمْ شُبَّتِ النَّارُ
وَمِنْ تَكَرُّمِهِمْ فِي المَحْلِ أَنَّهُمُ ... لاَ يَعْلَمُ الجَارُ فِيْهِمْ أَنَّهُ الجَارُ
حَتَّى يَكُونَ عَزِيْزاً مِنْ نُفُوسِهِمُ ... أَوْ أَنْ يَبِيْنَ جَمِيْعَاً وَهْوَ مُخْتَارُ[3]

وقال آخر:

نَزَلْتُ عَلَىٰ آل المُهَلَّبِ شَاتِيَاً ... غَرِيْبَاً عَنِ الأَوْطَانِ فِي زَمَنٍ مَحْلِ

---

(١) الحماسة ١/ ٢٨.
(٢) الحماسة ١/ ٣٣.
(٣) الحماسة ١/ ١٠٨.

فَمَا زَالَ بِيْ إِكْرَامُهُمْ واقْتِفَاؤُهُمْ وَإِلْطَافُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمُ أَهْلِي[1]

فإذا كان العرب المشركون في الجاهليَّة يُجيرون مَنْ يستجير بهم ؛ فالمسلمون أحقُّ ، وأولىٰ بهذا الخُلُق ؛ إذا لجأ إليهم واحدٌ منهم يستجيرُهم بالله ، ويلتجئ إليهم بالله .

يجب أن يرتفع المؤمنون إلى رتبةٍ تكون إجارةُ مَنْ يستجير بهم بالله مقدمةً على أيِّ شيءٍ آخر ؛ لأنَّ المؤمنين أشدُّ حبَّاً لله . إنَّ المستعيذ بالله ، المستجير به سبحانه جديرٌ بأن يلقىٰ الاهتمام ، واللَّهفة ، والإغاثة مِنْ أخيه المسلم .

فالمسلمون جسدٌ واحدٌ ، إذا اشتكى منه عضوٌ ؛ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى ، تراهم متعاونين ، متحابِّين ، يتميَّزون بالإيثار ، والنُّصرة والبذل ، مجتمعهم واحةٌ غنَّاء ، فيها العدالة ، والكرامة ، والتَّحرر من العبوديَّة ، وفيها روح الجماعة المتعاونة البنَّاءة ، لا يُحسُّ أحدٌ منهم بالضَّيم ، ولا يشعر أنَّه وحيدٌ أمام مصاعب الحياة ، إنّ المجتمع المثاليَّ الَّذي أقامه الرَّسول الكريم ﷺ في المدينة نموذجٌ ناطقٌ لمعنىٰ الإجارة ، والإيثار ، والنُّصرة ، وإنّ الأُخوَّة الإسلاميَّة الَّتي غرسها هذا الدِّين العظيم في نفوس أتباعه جعلتهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ، ويُجيرون إخوانهم ، ويؤوونهم ، وينصرونهم . قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

« . . . وَمَنْ سألكم بالله ؛ فأعطوه ، ومن دعاكم ؛ فأجيبوه» .

* من سألك بالله شيئاً ؛ كان عليك أن تعطيه ما سأل ؛ إن كنت مالكاً له ، مستغنياً عنه ، أمَّا إذا كان الَّذي يطلبه محرَّماً ؛ فلا يُحِلُّ الحَرامَ سؤالٌ مهما كان هذا السُّؤال عظيماً .

فالسُّؤال بالله سؤالٌ عظيم جدَّاً ، وَمِنْ هنا كان على مَنْ سُئِل بالله أن يستجيب

---

(١) الحماسة ١/١٠٩ .

للسَّائل؛ للتَّحذير الشَّديد الوارد ـ فيما جاء عن رسول الله ﷺ بسندٍ جيِّدٍ ـ في حقِّ من سئل بوجه الله، ولم يعطِ. عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «. . . وملعونٌ مَنْ سُئِلَ بوجه الله، ثمَّ منع سائله، ما لم يسأل هجْراً»[1].

إنَّ الحياة الإنسانيَّة الفاضلة لا بُدَّ أن تقوم على التَّعاون المثمر بين أبناء المجتمع. . . ولذلك جاءت نصوصُ القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة داعيةً إلى التَّعاون على البرِّ والتَّقوىٰ، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] وأمَّا الأحاديث فكثيرةٌ جدَّاً:

* من ذلك ما رواه أبو هريرة عن النَّبي ﷺ؛ قال: «مَنْ نَفَّس عن مسلمٍ كُرْبَةً من كرب الدُّنيا؛ نفَّس الله عنه كربةً من كُرَبِ يوم القيامة، وَمَنْ ستر مسلماً؛ ستره الله في الدُّنيا، والآخرة، وَمَنْ يسَّر على معسرٍ؛ يسَّر الله عليه في الدُّنيا، والآخرة، والله في عَوْنِ العبد ما كان العبد في عَوْنِ أخيه». رواه أحمد، ومسلمٌ، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه[2].

* ومنها حديث أبي ذرٍّ المشهور[3]؛ الَّذي يحكي لنا مجيءَ الفقراء يشكون أمرهم للرَّسول ﷺ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتصدَّقوا، كما يتصدَّق الأغنياء، فأرشدهم إلى أمورٍ، منها قوله في روايةٍ أخرجها أحمد: «رَفْعُكَ العظم عن الطَّريق صدقةٌ، وَعَوْنُكَ الضَّعيف بفضل قوتك صدقةٌ، وبيانك عن الأرتم[4] صدقةٌ»[5].

* ومنها حديث أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ سُلامىٰ من

---

(١) رواه الطَّبرانيُّ، انظر «صحيح الجامع الصَّغير» ٥٨٩٠.

(٢) أحمد ٢/٤٠٧، ومسلمٌ ٢٦٩٩، وأبو داود ٤٩٤٦، وصحيح التِّرمذي للألبانيِّ ٢٣٤٨ وابن ماجه برقم ٢٢٥.

(٣) مسلمٌ ١٠٠٦.

(٤) الأرتم: الَّذي لا يبين. جاء في النِّهاية: [كذا وقع في الرواية، فإن كان محفوظاً فلعلَّه من قولهم: رتمت الشَّيء: إذا كسرته، ويكون معناه معنى الأرثِّ، وهو الذي لا يفصح الكلام ولا يصحِّحه، ولا يبيِّنه].

(٥) مسند أحمد ٥/١٥٤.

النَّاس عليه صدقةٌ كلَّ يومٍ تطلُع فيه الشَّمس: تعدل بين الاثنين صدقةٌ ، وتعين الرَّجل في دابَّته ، فتحمِّله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقةٌ». رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأحمد[1].

* ومنها حديث النُّعمان بن بشيرٍ: «مثل المؤمنين في توادِّهم ، وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ؛ تداعىٰ له سائر الجسد بالسَّهر ، والحُمَّىٰ». رواه أحمدُ ، والبخاريُّ ، ومسلمٌ[2].

* ومنها حديث ابن عمرٍو: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعىٰ بذمَّتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم». رواه أبو داود[3].

* ومنها حديث أبي ذرٍّ ؛ الَّذي فيه الوصيَّة بالخدم ، والعبيد ، ومعاونتهم: «إخوانُكم خَوَلُكُمْ ، جعلهمُ الله تحت أيديكم ، فَمَنْ كان أخوه تحت يديه ؛ فليُطعمه ممَّا يأكل ، وليُلبسه ممَّا يَلْبَس ، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[4]. رواه البخاريُّ ، ومسلم.

* ومنها حديث سهل بن حنيف: «من أعان مجاهداً في سبيل الله ، أو غارماً في عسرته ، أو مكاتباً في رقبته ؛ أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه». رواه أحمد[5].

إنَّ هذه النُّصوص ، وغيرها كثيرٌ ، عندما تواجه المسلم ؛تدفعه إلى التَّعاون مع إخوانه المسلمين دفعاً داخلياً ، يرجو من ورائه ثواب الله. . وهكذا كان المسلمون في عصر السَّلف الصَّالح ، وبقيت ملامح من هذا التَّعاون إلى أمدٍ قريب.

لا شكَّ أنَّ تنظيم هذا التَّعاون أمرٌ طيِّبٌ كتأسيس الجمعيات الخيريَّة ، ونحو

---

(١) البخاري ٢٩٨٩ ، ومسلم ١٠٠٩ ، وأحمد ٢/ ٣٥٠.
(٢) مسند أحمد ٤/ ٢٧٠ ، ومسلمٌ ٢٥٨٦ ، والبخاريُّ ٦٠١١.
(٣) أبو داود رقم ٢٧٥١.
(٤) البخاريُّ برقم ٣٠ ، ومسلمٌ برقم ١٦٦١.
(٥) مسند أحمد ٣/ ٤٨٧.

ذلك ، ولكن لا بدَّ من أن يكون الحافز إلى التَّعاون داخلياً ، ينبع من أعماق النَّفس ، وهذا مطلبٌ لا يُنال إلا عن طريق الدِّين. إنَّ الإنسان ـ بسبب الشُّحِّ الَّذي طُبِعت الأنفس عليه ـ قد يتهرَّب من الاشتراك في الأعمال الخيريَّة كما نجد الحال في عددٍ من البلدان الَّتي تجبر أبناءها على المشاركة في هذه الأعمال إجباراً قانونياً بعيداً عن الدِّين ، وموضوع السُّؤال ـ أي: الشِّحاذة ـ بيَّنه الرَّسول ﷺ بأحاديث[1] واضحةٍ صريحةٍ ، فهو لا يحلُّ إلا للفقير المدقع الَّذي لا يجد شيئاً يتقوَّت به ، وعندئذٍ إذا سأل مَنْ نزلت به فاقةٌ كان على المسلم أن يعطيه ما يَسُدُّ حاجته ، ويساعده على تخطِّي الأزمة الَّتي حلَّت به ، ولو أنَّ النَّاس رعوا هذا المبدأ حقَّ الرِّعاية ، فلا يسأل إلا المضطرُّ المحتاج ؛ لما رُدَّ سائلٌ إلا قليلاً. وما أجمل هذا التَّوجيه الكريم ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحىٰ: ١٠]. فإمَّا أن تعطيه سؤله ، وإما أن تردَّه ردَّاً كريماً.

* «ومن دعاكم؛ فأجيبوه».

إنَّ إجابة الدَّعوة تُدخل السُّرور على الدَّاعي ، وتجبر خاطره ، وترسِّخ المودَّة بين النَّاس ، وتؤكِّد رابطة الأخوَّة بينهم ، والامتناع عن إجابة الدَّعوة كبرٌ ، واستعلاءٌ على عباد الله ، أو بخلٌ حتَّى لا يضطرَّ إلى أن يدعو النَّاس ، وكلا الأمرين لا يليق بالمسلم أن يتَّصف بهما ، وتبادُل النَّاس الدَّعوات يَجْعَلُ أثرها الطَّيِّب أكبر ، فمن دعاك كان عليك أن تجيبه ، ثمَّ تحرص على أن تكافئه بدعوةٍ مماثلةٍ ؛ إن كنت قادراً. والكريم يقبل دعوة مَنْ يدعوه ، ولا يأبىٰ أن يستجيب ما دام قادراً. وقد تكون الدَّعوة إلى الطَّعام مؤدِّيةً وظيفةً اجتماعيَّةً فاضلةً ، وذلك عندما تلبِّي حاجةً طارئةً في المجتمع ، كأن يكون فقرٌ ، وقلَّةٌ في الطَّعام ، وغلاءٌ في الأسعار ، فإذا أبىٰ النَّاس إجابة الدَّعوة ؛ قلَّت الدَّعوات ، وامتنع الموسرون من إقامتها ، وحُرِمَ بذلك من هو بحاجةٍ ماسةٍ إليها. والدَّعوات من الأمور المحقِّقة لإحياء سنَّة إطعام الطَّعام الَّتي دعا إليها الكتاب والسُّنَّة ، وعلىٰ المسلم أن يتجنَّب التكلُّف ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ،

---

(١) انظر هذه الأحاديث في كتاب التَّرغيب والتَّرهيب للإمام المنذري ١/ ٢٤٥ وما بعدها.

فالتكلُّف حجابٌ يحول بين النَّاس وبين الاتصاف بالكرم ، وينتهي بهم إلى البُخلِ المَقِيْت ، المذموم.

والدَّعوات أنواعٌ: فمنها ما كانت إجابته فرضاً لازماً ، كوليمة العرس ، ومنها ما كانت الإجابة فيها مندوبةً ، وذلك كلُّه فيما إذا لم يكن هناك معصيةٌ تحظر على المرء المشاركة في الجلوس ، كما يحصل مع الأسف في بعض المجتمعات الَّتي انحرفت عن مبادئ الإسلام ، كالاختلاط المستهتر ، وكوجود المسكر ، وكلعب الحاضرين بألعابٍ محرَّمةٍ ، وكحضور ناسٍ ضالِّين يهزؤون بالدِّين ، أو كان الطَّعام مشبوهاً ؛ لأنَّ الداعي يأكل الرِّشوة ، والرِّبا ، ويغصِب ، ويسرِق . . وما إلى ذلك.

يا أخي!

إذا دعيت ؛ فأجب ، وإذا سئلت بالله ؛ فأعط ، واعلم أنَّك إن كنت في حاجة أخيك في الدُّنيا ؛ كان الله في حاجتك يوم القيامة . . وما أعظم المكافأة!

وما تدري يا أخي! ما الله قاضٍ في مُقْبِل أيَّامك ، فقد تكون محتاجاً إلى من يُغيثك ، ويُعطيك. فاتق الله ، وأغث مَنْ يستغيث بك مِنْ إخوانك المسلمين ، وأعط مَنْ يسألك. وقانا الله وإيَّاك تقلُّبات الزَّمن ، وأدام علينا ، وعليك نعمه ، وعرَّفنا ، وإيَّاك قيمتها ، وألهمنا جميعاً شكرها. يقول ﷺ:

«. . . وَمَنْ آتى إليكم معروفاً؛ فكافئوه ، فإن لم تجدوا ؛ فادعوا له ؛ حتَّى تعلموا أن قد كافأتموه».

في هذه القطعة من الحديث حضٌّ على أن يشكر المسلم مَنْ قدَّم إليه معروفاً . إنَّ هذا من مكارم الأخلاق الَّتي دعا إليها رسول الله ﷺ الَّذي تأدَّب بالقرآن في قوله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ: أنَّ مجازاة فاعل المعروف ينبغي أن تكونَ المكافأة بما يقوىٰ عليه المرء ، أمَّا مَنْ لم يجد ما يكافئ به ؛ فعليه أن يدعو للمُحسن ، ويبالغ في الدُّعاء ، وأن يشكره بعباراتٍ تدلُّ على العرفان ، وتقدير الإحسان ، حتَّى يعلم: أنَّه قام بحقِّ الشُّكر. أمَّا الَّذين يتلقَّون الإحسان ، والمعروف من

الآخرين ، ولا يقابلونهم بالمثل ، ولا يكافئونهم بالدُّعاء ، ولا يذكرونهم بالثَّناء ؛ فهؤلاء قومٌ نأوا عن منزلة الشَّاكرين ؛ الَّذين يحبُّهم الله.

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أُعْطِيَ عطاءً ، فوجد ؛ فَلْيَجْزِ به ، فإن لم يَجِدْ ؛ فَلْيُثْنِ ، فإنَّ مَنْ أثنى ؛ فقد شكر ، ومَنْ كتم ؛ فقد كفر ، وَمَنْ تحلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ». رواه التِّرمذيُّ ، وأبو داود[1] ، وابن حبَّان ، ولفظه: «مَنْ أُوليَ معروفاً ، فلم يجد له جزاءً إلا الثَّناء ؛ فقد شكره ، ومَنْ كتمه ؛ فقد كفره ، ومن تحلَّى بباطلٍ ؛ فهو كلابس ثَوْبَيْ زورٍ»[2].

وهكذا فإنَّ المطلوب ممَّن أُولي المعروف أن يقابل النِّعمة بالنِّعمة ، والعطيَّة بالعطيَّة ، فإن لم يجد ؛ فَلْيَلْجأ عندئذٍ إلى الكلمة الطَّيبة ؛ فهي شكرٌ.

والمعروف أنواعٌ كثيرةٌ ، منها: الهديَّة ، والعطيَّة ، والدَّعوة إلى الطَّعام ، والمعونة المادِّيَّة ، والمعونة المعنويَّة ، كالشَّفاعة ، والدِّفاع عن المسلم في غيابه ، ورعاية أولاده.

وأمَّا قوله ﷺ: «وَمَنْ تحلَّى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ»[3].

فكأنَّ معنى هذه الجملة هاهنا: أنَّ مَنْ لم يشكر المُحسن ، وتفاخر بأنَّ ما فيه من خيرٍ هو من ماله ، ومن كدِّه ، وليس من عطيَّة أحدٍ. إنَّ من فعل هذا كاذبٌ لابسٌ ملابس ليست له[4] ، وهو مذمومٌ ، ولا بُدَّ أن يُكشف حاله ،

---

(١) التِّرمذيُّ برقم ٢٠٣٤ ، وانظر صحيح التِّرمذيِّ ١٦٥٦ ، وأبو داود برقم ٤٨١٣ .

(٢) الإحسان ٨ برقم ٣٤١٥.

(٣) روى البخاريُّ ٩/ برقم ٥٢١٩ ومسلمٌ برقم ٢١٣٠ ، والنَّسائي في السنن الكبرى ٥/ ٢٩٢ برقم ٨٩٢١ وأبو داود ٤٩٩٧ وأحمد ٦/ ١٦٧ حديثاً نصُّه: «المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثَوْبَيْ زور».

(٤) قال أبو عبيد: هو الَّذي يلبس ثياب أهل الزُّهد ، والعبادة ، والورع ، ومقصوده أن يظهر للنَّاس: أنه متَّصفٌ بتلك الصِّفة ، ويظهر من التخشُّع ، والزُّهد أكثر مما في قلبه ، فهذه ثياب زورٍ ، ورياءٍ. وقيل: هو كمن لبس ثوبين لغيره ، وأوهم أنَّهما له [وانظر عون المعبود ٤/ ٤٥٧ وفتح الباري ٩/ ٣١٧ ـ ٣١٨ وشرح النَّوويِّ ١٤/ ١١٠]. =

ويُعرف ، فيفتضح ، ويبوء عندئذٍ بالخسران .

* وبيَّن رسولُ الله ﷺ في حديث أسامة الآتي نموذج دعاءٍ يقوله مَنْ لم يجد ما يكافئ به صانع المعروف إليه .

عن أسامة بن زيدٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ صُنِعَ إليه معروفٌ ، فقال لفاعله : جزاك الله خيراً ! فقد أبلغ في الثَّناء» . رواه التِّرمذيُّ وقال : هذا حديثٌ حسنٌ جيِّدٌ غريبٌ[1] .

وفي روايةٍ : «مَنْ أُوليَ معروفاً ، أو أُسْدِيَ إليه معروف ، فقال لِلَّذي أسداه : جزاك الله خيراً ! فقد أبلغ في الثَّناء» .

* ويمكن أن يقرِن الدُّعاء بالثَّناء على المحسن ، وذكره بالخير في مجالس النَّاس ، دلَّ على ذلك حديث عائشة عن رسول الله ﷺ : أنَّه قال : «مَنْ أُتي إليه معروفٌ ؛ فليكافِ به ، وَمَنْ لم يستطع ؛ فليذكره ؛ فإنَّ مَنْ ذكره ؛ فقد شكره ، ومن تشبَّع بما لم يعطَ ؛ فهو كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ» رواه أحمد[2] .

وهكذا فَمَنْ ذكر المعروف ، ونسبه إلى صاحبه ؛ عُدَّ شاكراً ، ومَنْ كتمه ؛ كان كافراً للنِّعمة ، جاحداً للفضل ، كاذباً في ادِّعائه . يروي أنسٌ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ المهاجرين جاؤوا إلى النَّبيِّ ﷺ فقالوا : يا رسول الله! ذهب الأنصار بالأجر كلِّه ، ما رأينا قوماً أحسن بذلاً لكثيرٍ ، ولا أحسن مواساة في قليلٍ منهم ، ولقد كفونا المؤونة . قال : «أليس تُثنون عليهم به ، وتَدْعون لهم؟» قالوا : بلى! قال : «فذاك بذاك» رواه أبو داود ، والنَّسائي ، واللَّفظ له[3] .

* ولقد ربط سيدنا رسول الله ﷺ شكر الله بشكر النَّاس ، فمن لا يشكر

= وقيل : المتزيِّن بما ليس عنده ، ويتكثَّر بذلك عند النَّاس ، ويتزيَّن بالباطل ، فهو مذمومٌ كما يذمُّ من لبس ثوبي زورٍ .

(١) التِّرمذيُّ برقم ٢٠٣٤ .

(٢) أحمد ٦/ ٩٠ .

(٣) سنن النَّسائيِّ الكبرى ٦/ ٥٣ برقم ١٠٠٠٩ ، وسنن أبي داود برقم ٤٨١٢ ، وانظر صحيح أبي داود ٤٠٢٧ والتِّرمذيُّ برقم ٢٤٨٧ ، وأحمد ٣/ ٢٠٠ .

النَّاس ؛ لا يشكر الله ، وذلك لأنَّ الطَّبيعة الخيِّرة ؛ الَّتي تحمل المرء على شكر مَنْ أسدىٰ إليه معروفاً؛ تحمله من باب أولىٰ على شكر المُنعم الأعظم ، الخالق ، المتفضِّل ؛ الَّذي أسبغ نعمه على عبده ظاهرةً ، وباطنةً ، ولا يُعدُّ شاكراً لله مَنْ كفر أيادي النَّاس عليه ، وجحد فضلهم ، مهما دندن بألفاظ الشُّكر لله ، وعبارات الذِّكر .

عن الأشعث بن قيس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أشكر النَّاس لله تبارك وتعالى أشكرُهم للنَّاس» . وفي روايةٍ: «لا يشكر اللهَ مَنْ لا يشكر النَّاس» . رواه أحمد ، ورواته ثقاتٌ[1] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يشكر اللهَ مَنْ لا يشكر النَّاس» رواه أبو داود ، والتِّرمذيُّ[2] .

وممَّا قالت العرب في الشُّكر ، وفضله ، وترك كِتْمان المعروف ، قول الشَّاعر ، وهو رجلٌ من بني الحارث بن كعبٍ:

إِنِّي شَكَرْتُكَ وَالشَّكورُ بِمَا أتىٰ ... عِنْدَ الإِلٰهِ بِسَعْيِهِ مَأْجُورُ
فَجَعَلْتُ شُكْرَكَ بِالَّذِيْ أَوْلَيْتَنِي ... مِنْ فَضْلِ عُرْفِكَ وَالكَرِيْمُ شَكُوْرُ
وَعَرَفْتُ أنَّ الشُّكْرَ خَيْرٌ عَادةً ... والكُفْرُ يَكْسُد بَيْعُهُ وَيَبُوْرُ[3]

وقال أيضاً:

وَمَا يَبْلُغُ الإِنْعَامُ فِي النَّفْعِ غَايَةً ... عَلَى المَرْءِ إلا مَبْلَغُ الشُّكْرِ أَفْضَلُ
وَمَا بَلَغَتْ أَيْدِي المُنِيْلِيْنَ بَسْطَةً ... مِنَ الطَّوْلِ إلا بَسْطَةُ الشُّكْرِ أَطْوَلُ
وَلاَ رَجَحَتْ فِي الشُّكْرِ يَوْماً صَنِيْعَةٌ ... عَلَىٰ المَرْءِ إلا وَهيَ بالشُّكْرِ أَثْقَلُ
وَلاَ بَذَلَ الشُّكْرَ امْرُؤٌ حقَّ بَذْلِهِ ... عَلَى العُرْفِ إلا وَهوَ لِلْمَالِ أَبْذَلُ

---

(١) أحمد ٥/ ٢١١ .

(٢) سنن أبي داود ٤٨١١ ، وجامع التِّرمذيِّ ١٩٥٤ ، وانظر صحيح أبي داود ٤٠٢٦ ، وصحيح التِّرمذيِّ ١٥٩٢ .

(٣) حماسة البحتري ١٥٧ .

فَمَـنْ شَكَـرَ المَعْـرُوفَ يَـوْمَاً فَقَـدْ أَتَـىٰ أَخَا العُرْفِ مِنْ حُسْنِ المُكَافَاةِ مِنْ عَلُ[1]

هذا ومن المفيد أن نذكر: أنَّ الإمام السُّبكي ألَّف كتاباً مُمْتِعاً عنوانه: «معيد النِّعم ومبيد النِّقم». والكتاب في أصله يبحث في الشُّكر، وقد ذكر في مطلع الكتاب ما يقرب من ١٢ صفحة كلّها عن الشُّكر، وكيف تزيد النِّعم بسببه.

ثمَّ تعرَّض إلى حديث «مَنْ لم يشكرِ النَّاس؛ لم يَشْكُرِ الله» فذكر درجته، ورواياته الكثيرة، ووفَّق بينه وبين فكرة كون النِّعم كلّها من الله.

واستوفى الكلام على الشُّكر بالجنان، واللسان. وبقيَّة الكتاب عرضٌ لأمثلةٍ. يقول: [فليس مِنْ شُكْرِ النِّعمة أن تهملها، وتشكرها على وجهٍ غير الوجه الذي عليه بُنيت، فمن عدل عنها إلى نوعٍ آخر من الشُّكر؛ فقد قصَّر، وترك الأهمَّ. وإنَّما الرَّشيد مَنْ جمع الأمرين، فإنْ كان لا بدَّ من التَّفرقة، فالأنسب استعمال كلِّ نعمةٍ فيما خُلِقَتْ له. وهذا يتَّضح بأمثلةٍ[2]].

ثمَّ بدأ بالأمثلة حتَّى بلغت ١١٣ مثالاً.

لقد ربَّى الإسلام أتباعه على خُلُقِ الشُّكر، مهما كان صاحب المعروف صغيراً أو كبيراً، قريباً أو بعيداً، ومهما كان حجم المعروف المُقدَّم؛ لأنَّ الَّذي لا يشكر القليل لا يشكر الكثير؛ إذ القلَّة، والكثرة أمران نسبيَّان، يختلفان باختلاف الظُّروف، والآخذين، والمُعطين.

أمَّا إذا أصبح الشُّكر طبيعةً للمرء فإنَّه يسارع إلى مكافأة المُحسن بما يستطيع، أو يلهج لسانه بالشُّكر، والدُّعاء، والعرفان، والثناء.

عن النُّعمان بن بشيرٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم يشكر القليل؛ لم يشكر الكثير، ومَنْ لم يشكر النَّاس؛ لم يشكر الله، والتَّحدُّثُ بنعمة الله شكرٌ، وتركها كفرٌ، والجماعة رحمةٌ، والفُرقة عذابٌ»[3]

---

(١) حماسة البحتري ١٥٨.
(٢) مفيد النِّعم ص ١٢.
(٣) مسند أحمد ٤/ ٢٧٨ و٣٧٥.

رواه عبد الله بن أحمد في زوائده بإسنادٍ لا بأس به.

إنَّ في هذا التَّوجيه النَّبويِّ الكريم تربيةً ساميةً للمسلمين على الفضائل، لأنَّ شكر المحسن يشجِّع على الاستمرار في فعل الخير، والتَّعاون بين النَّاس، ويغري غيره بسلوك مسلكه، فيكثر المحسنون. وذلك عندما يكون فاعل الخير محترماً في مجتمعه، مذكوراً بالخير، يثني عليه النَّاس كلُّهم، ويقابله مَنْ يجد ما يكافئه به بالحسنىٰ، والذِّكر الحسن، فإنَّ ذلك يبرز قيمة فعل المعروف، ويُعلي من شأن الجود، والكرم، ويوقظ في النُّفوس معاني الخير، ويدعوها إلى انتهاج ذاك النَّهج الفاضل.

وكذلك فإنَّ مقابلة المعروف بالمعروف، والشُّكر، والثَّناء سببٌ لتأكُّد المودَّة بين النَّاس، أمَّا كفران النِّعمة، وإنكار المعروف؛ فإنَّه قد يكون ذريعةً لانقطاع فعل الخير بين النَّاس، وقد يولِّد الحقد، والكراهية، والبغضاء بينهم.

إنَّه أدبٌ اجتماعيٌّ رفيعٌ، ما أحرانا أن نربِّي أولادنا عليه، وذلك بأن نعلِّم الطفل نظرياً، وعملياً: أنَّ عليه أن يقدِّم الشُّكر وافراً لكلِّ مَنْ يصطنع معه معروفاً، حتَّى يدرج على هذا، ويُضحي تقديمُ الشُّكر عنده عادةً. والقدوة لها دورٌ كبير في التَّربية، فلندرب أنفسنا على التزام شكر المتفضِّل؛ حتى ولو كان ولداً من أولادنا.

والشُّكر كما يتَّضح من الأحاديث الَّتي ذكرنا درجاتٌ، أعلاها أن تكافئ من آتى إليك معروفاً بأحسن من معروفه، أو مثله؛ إن كنت قادراً على ذلك. وأن تقرن المكافأة بالدُّعاء. وتلي هذه الرُّتبة أن تدعوَ له، وتذكرَه بمعروفه؛ إن لم تجدْ ما تكافئه به.

* ولا بدَّ ونحن في صدد تأمُّل الحديث؛ الَّذي يدعو إلى شكر من أحسن إليه من النَّاس؛ أن نذكر أنَّ علينا واجب شكر الله تبارك وتعالى على ما أنعم من النِّعم الوفيرة الكثيرة، وقد وعد سبحانه أنه سيجزي الشَّاكرين: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۖ وَمَن يُرِدْ

ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقد وعد جلَّ جلاله: أنَّه لا يعذِّب مَنْ شكر نعمه، وآمن به: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] ووعد مَنْ شكر الزِّيادة، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾

[إبراهيم: ٧].

* هذا وإنَّ أحقَّ النَّاس بالشُّكر الوالدان: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

ثمَّ يأتي بعد الوالدين المربِّي؛ الَّذي هداك إلى طريق الرَّشاد، ودلَّك على سبيل النَّجاة.

* إنَّه يصعب على نفس المحسن أن يلقى الإساءة ممَّن قدَّم إليه المعروف، أو أن يلقىٰ منه التَّجاهل، ونكران الفضل، وقد يحدث مثل هذا في واقع الحياة، فلا ينبغي أن يصرف المؤمنين عن فعل المعروف وجودُ عددٍ من المنكرين الجاحدين.

ذكر بعضهم: أنَّ رجلاً هبَّت عليه ريح الشُّهرة في غفلةٍ من الزَّمان، فتبوَّأ منصباً كبيراً لمدَّةٍ قصيرةٍ، ثمَّ دالت دولتُه، وعضَّه الدَّهر بنابه، فأوىٰ إلى إنسانٍ كريمٍ يرجو نواله، ومعونته، فما خيَّب رجاءه، وقدَّم له كلَّ ما يقوى عليه من خدمةٍ، ومعونةٍ، وهيَّأ له عملاً جيِّداً ما كان له أن يبلغه لولا وساطته، فما كان منه بعد أن تمكَّن إلا أن تنكَّر له، وأصبح يذكره بسوءٍ، فكشف بذلك عن معدنه، وأساء لنفسه أكثر ممَّا أساء لصاحبه. إنَّ هذا لا يجوز أن يُزهِّد النَّاس في فعل الخير، ولنحذر من أقوالٍ أطلقها أصحابها بعد تجربةٍ مؤلمةٍ مع إنسانٍ لئيمٍ، ومن ذلك ما ينسبونه افتراء إلى النَّبيِّ ﷺ من قولهم: «اتَّق شرَّ من أحسنت إليه» فهذا قولٌ باطلٌ مكذوبٌ. إنَّ الموقف الخسيس الَّذي يقفه الجاحد

للفضل ليس في مصلحته الدُّنيوية فضلاً عن أنَّه ليس في مصلحته الأخرويَّة ، لأنَّ الأيَّام دولٌ ، ولله درُّ القائل :

هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وَهٰذِهِ الدَّارُ لاَ تُبْقِي عَلَىٰ أَحَدٍ ... وَلاَ يَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ لَهَا شَانُ

ما يدريه ما تقلُّبات الأيام؟ . إنَّه إذا وقع في أزمةٍ ؛ فلن يجد مَنْ يغيثه ، أو ينجده ، ومهما يكن من أمرٍ ؛ فإنَّ وجود مثل هذا الإنسان أمرٌ شاذٌّ؛ لأنَّ الفطرة السَّليمة تقضي بمقابلة الإحسان بالإحسان . إنَّ كلمة الشُّكر تدلُّ على نبل الشَّاكر وطيب عنصره ، وتكسبه ثواب الله ، ومحبَّة الناس ، والشُّكر أيضاً دعمٌ لبقاء هذه القيم السَّامية ، والمُثُل العُليا حيَّةً في واقع النَّاس .

وممَّا قالت العرب في الشُّكر ، وفضله ، وترك كِتْمَان المعروفِ ، قولُ رجلٍ من غطفان :

الشُّكْرُ أَفْضَلُ مَا حَاوَلْتَ مُلْتَمِساً ... بِهِ الزِّيَادَةُ عِنْدِ الله وَالنَّاسِ[1]

وقال الأحوص بن محمد الأنصاري :

فَلأَشْكُرَنَّ لَكَ الَّذِي أَوْلَيْتَنِي ... شُكْرَاً تَحلُّ بِهِ المَطِيُّ وترحلُ
مَدْحَاً تَكُونُ لَهُ غَرَائِبُ شِعْرِها ... مَبْذُولَةً وَلِغَيْرِه لا تُبْذَلُ[2]

وقال صالح بن عبد القدُّوس :

وَاشْكُرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ مِنْ حقٍّ عَلَى الإنسانِ وَاجِبْ
لا ترجُ مَنْ لا يَشْكُرِ النُّعْمَىٰ وَيَصْبِرُ فِي العَوَاقِبْ[3]

وقال أيضاً :

لأَشْكُرَنَّ هُمَامَاً فَضْلَ نِعْمَتِهِ ... لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَا[4]

وقال ابن أذينة اللَّيثيُّ :

---

(١) حماسة البحتري ١٥٨ .
(٢) حماسة البحتري ١٥٨ .
(٣) حماسة البحتري ١٥٩ .
(٤) حماسة البحتري ١٥٩ .

لاَ تَكْفُـرَنَّ طَـوالَ عَيْشِـكَ نِعْمَـةً لُـؤْمَـاً تُجَـاحِـدُهَـا امـرأً أَوْلاَكَهَـا[1]

وقال طُرَيْحُ بن إسماعيل الثَّقفيُّ:

وَإِذَا خُصِصْـتَ بِنِعْمَـةٍ وَرُزِقْتَهَـا مِـنْ فَضْـلِ رَبِّـكَ مِنَّـةً تَغْشَـاهَـا

فَـابْـغِ الـزِّيَـادَةَ فِـي الَّـذِي أُعْطِيْتَـهُ وَتَمَـامُ ذَاكَ بِشُكْـرِ مَـنْ أَعْطَـاهَـا[2]

* * *

(١) حماسة البحتري ١٦٠.

(٢) حماسة البحتري ١٦٠.